مقـــدمة الكتاب

هناك فى مجموعة المخطوطات الشرقية الغنية بمعهد الاستشراق المجمع العلمى السوفييتى ، اكتشفت بعد الحرب العالمية الأولى ثلاث أراجيز لوصف الطرق البحرية فى القرن الخامس عشر من تأليف أحمد بن ماجد الملاح العربى الذى قاد سفينة فاسكودى جاما فى رحلتها من شرق أفريقيا إلى الهند . وتعتبر هذه الرحلة بداية الاستعباد الاستعمارى لشعوب الشرق .

فالقرن الخامس عشر — وهو القرن الذى بدأ فيه التوسع الاستعمارى لأسبانيا والبرتغال أقوى دولتين فى ذلك الوقت — هو القرن الذى مهدت فيه طريق إلى الهند وفتحت فيه أمريكا، وانفتح فيه فجأة أمام أوربا عالم جديد يكاد يكون غير معروف . إلا أن هذا الحدث كان بداية استعمار شعوب جنوب آسيا فى الهند وأندونيسيا والصين . وكان أيضاً بداية التجارة الرقيق فى الأدرياتيك وبداية استعباد السلالة الهندية فى أمريكا (الهنود الحمر) والقضاء على الحضارة العظيمة لشعوب الآتز والبراون فى جنوب أمريكا .

وعندما عبرت سفن فاسكودى جاما الطريق الجنوبى لأفريقيا ورحلت إلى المحيط الهندى وجدت على شواطىء أفريقيا الشرقية مدناً زاهرة وبلداناً تجارية . ووجدت على شواطىء المحيط الهندى تجارة حية نشطة . وكانت سفن تجار الهند تزور موانى جنوب البحر الأحمر وشرق أفريقيا . ووصلت السفن الصينية حتى شواطىء جنوب الجزيرة العربية ومدن شرق أفريقيا : مقديشيو ومالندى . إلا أن السيطرة على المحيط الهندى كانت للملاحة العربية . ففى يد التجار العرب كانت التجارة على طول شواطىء المحيط الهندى من سفالية فى جنوب أفريقيا حتى سومطرة .

وقد حفظت لنا قصص سندباد ماتردد فى الرحلات البحرية للملاحين العرب عن جزر طير الرخ وجزر الواق واق وجزيرة القمر وورد ذلك أيضاً فى كثير

من قصص « ألف ليلة وليلة » . إلا أنه أحيانا ماينسى الماضى الزاهر للنشاط البحرى عند العرب وتصور ثقافتهم على أنها صحراوية فى أساسها .

ومن المعروف جيداً أن رجال البحر الأوربيين فى القرن الخامس عشر كانوا فى كثير من الأمور تلامذة للبحارة العرب. فالبحار البرتغالى انفانت أنريكو و هو الذى يرتبط اسمه بفتوحات البرتغاليين الجغرافية قد استفاد من خبرة البحارة العرب فى شمال أفريقيا . وبفضلهم استطاع البرتغاليون أن يتوصلوا إلى عمل خرائط وأدوات للملاحة وأن يحسنوا طاقم سفنهم . وبفضل تأثير العرب أيضاً على مايبدو استطاع البرتغاليون أن يبنوا نمطاً جديداً من السفن له نظام جيد لشد القلاع والتحكم فيها .

وعندما عبر فاسكودى جاما الطريق الجنوبى الأفريقى سار بحذاء الشط الأفريقى الشرقى حتى مدينة مالندى . وهناك أشار عليه وال محلى بابن ماجد — الربان المشهور ذى الخبرة الواسعة بالبحار الجنوبية — على أنه الملاح المجرب الذى يستطيع أن يوصل الأسطول البرتغـــالى إلى الهند . وهكذا أرى ابن ماجد البرتغاليين الطريق إلى الهند . وهو مايذكره ابن ماجد نفسه بأسى فى أراجيزه حيث يقول عن المستعمر البرتغالى :

وجاء لكاليكوت خذ ذى الفايده لعام تسعماية وست زايده
وباع فيها واشترى وحكما والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الإسلام والناس فى خوف واهتمام

*

ياليت شعرى مايكون منهم والناس معجبين من أمرهم

وكان قدر ابن ماجد تراجيديا . فقد كان شاهداً على مافام به البرتغاليون من إفناء للسلاطين العرب فى شرق أفريقيا وتدعيم قبضتهم على الهند وأندونيسيا وقد وضعت هذه السنون لبنة الاستعباد الاستعمارى لشعوب جنوب آسيا .

ومنذ ذلك الحين مرت ٤٥٠ عاما كانت بالنسبة لشعوب الشرق فترة ظلم واستعباد . فقد تعاقب البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والإنجليز واحد

تغلو الآخر على شعوب آسيا وأفريقيا ونهبوا ثرواتهم وظلموا وحقروا من القيمة الإنسانية لهذه الشعوب . إلا أن القرن العشرين كان قرن التحرر . فقد نفضت الصين العظيمة عن نفسها ربق الأجنبي وأصبحت الهند مستقلة وتحررت أندونيسيا وتبعت هذه الشعوب شعوب العالم العربي وأفريقيا . وإن ماتقوم به الدول الاستعمارية العتيقة من محاولات لإعادة سيطرتها لعديم الجدوى والفائدة . فالعدوان الفرنسي الإنجليزي (١٩٥٦) حاول أن يفرض رغبته على شعب مصر المحب للحرية . وقد خيل له أن البلاد العربية لن تتمكن من تأمين عبور السفن في قناة السويس . فمن بين المصريين كثير من الملاحين الوطنيين وهم جديرون بأن يكونوا خلفاً لأسلافهم الفدائي من الملاحين العرب .

ونحن شهود أفول سلطان الاستعمار وكل قوى تحاول من جديد إحياء أيام فاسكودي جاما ولورد كلايف مصيرها الفشل . وإن صراع شعوب الشرق سيعتمد على الجبهة الموحدة لكل الشعوب المحبة للحرية .

بلينيجراد في ١٩٥٧/١/٦ د. ا. أولدروجي